الفصل الثالث

الربيع بن يونس وابنه الفضل ودورهما في المؤامرات

تقديم * :

فى مثل هذا الجو المملوء بالدسائس والمؤامرات كانت تعيش قصور العباسيين ؛ فكانت تموج بالفتن ، وتزدحم بالوشايات ، وكان من الخلفاء من يُعَدّون قادة فى هذا الشأن ؛ إذ أثاروا هذه الحركات ورعوها ، ووطدوا سلطانهم على رفات الآخرين ، وشيدوا مجدهم على أنقاض الأشياع والأعداء جميعاً ، ومن الطبيعى أن انتقل هذا الخلقُ من سادة القصور إلى الحاشية والأعوان ، وان نسرب الداء إلى النفوس ، وبخاصة الضعيفة منها ؛ فأصبحت القصور تموج بالدسائس ، وتتجاوب بالمؤامرات ، وكُوّنت فى القصر الواحد جماعات وأحزاب تتجاذب السلطان ، وتنشط فى حبك الوقيعة وحوك المؤامرة . ولكن الربيع بن يونس وابنه الفضل كان لهما السبق فى هذا المضمار ، وكأنما صادف هذا الخلق هوى فى نفسيهما ، وميلا فى فطرة كل منهما . فاستجابا له أحسن ماتكون الاستجابة ، وأقوم مايكون الاتفاق ، وبرعا براعة تامه فى الإيقاع بمن يريدان ، وفى التنكيل بمن يكرهان .

ولقد امتد العهد الذى عاش فيه الوالد وابنه ، حتى شمل العصر الذى

---

* هناك فرق بين المؤامرات التى سنذكرها فى هذا الفصل ، وبين تلك التى ذكرناها فى الفصل السابق ؛ ذلك هو أن سادة القصور كانوا أبطال المؤامرات هناك ، أما هنا فأبطالها من الرعايا الذين التحقوا بخدمة الخلفاء ، ولم يكن عند هؤلاء الرعايا من السلطان مايمكنهم أن يتولوا بأنفسهم التنكيل بأعدائهم ، فاتخذوا الخلفاء وسيلة لهذا ؛ أوغروا صدورهم ضد هؤلاء الأعداء ، ومهروا فى السعاية والوشاية بهم حتى استجاب لهم الخلفاء ؛ فكانت العواصف والفتن .

أما قصور الخلفاء فقد كانت هنا كما كانت هناك المسرح الذى ظهرت عليه هذه المؤامرات ، وجرت به تلك الاحداث .

تتحدث عنه كلّه تقريباً من المنصور إلى المأمون ، فأتيح لدسائسهما أن تطول ، وللمؤامرات التى وَلِعَا بها أن تمتد .

وقبل أن نتحدث عن المؤامرات التى قام بها هذان الرجلان ، يجدر بنا أن نقدم أمثلة قليلة لمؤامرات قام بها سواهما فى قصور الخلفاء ، لنرى كيف شاع هذا الخلق فى القصور فى هذه العهود .

استوزر السفاحُ خالد بن برمك بعد قتل أبى سلمة الخلال ، فقام خالد بالأمر خير قيام ، وكان السفاح شديد الرضا عنه ، والتعلق به ، ولما مات السفاح أقره المنصور على الوزارة ، فبقى فيها سنة وشهورا ، وهو إلى نفس المنصور كما كان إلى نفس السفاح . وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على المنصور ، ولكن خالدا كان يقف حجر عثرة فى طريقه ، فبدأ المورياني يسلك سبيل الحيلة ليبعد خالداً عن القصر ، فذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لايكفيه أمرَها سوى خالد ، فندبه إليها . فلما بعُدَ خالد عن الحضرة استبد أبو أيوب بالأمر .(١)

ولم يكتف أبو أيوب بإبعاد خالد ، وإنما أخذ يسعى عليه ، ويحض أبا جعفر على مكروهه ، ويشى به ليسقطه من عينه ، لأنه كان يعرف ما فيه من الفضل ، ويتخوفه على محله ، ويخشى أن يرده أبو جعفر إلى ما كان يتقلده ؛ فلما كثر ذلك على أبى جعفر صرف خالدا عن فارس ونكبه ، وألزمه ثلاثة آلاف درهم ، ولم يكن عنده إلا سبعمائة ألف درهم ، فأقر بها خالد ، فلم يقبل المنصور منه ، وأمر بمطالبته بالمبلغ كله ؛ فأسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين ألف دينار ، وأسعفه مبارك التركى بألف ألف درهم ، ووجهت

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل حفيد خالد وبين هارون ابنها . واتصل ذلك بأبي جعفر فتحقق عنده قوله : إنه لا يملك إلاّ ما حكى ، فصفح له عن المال . فشقّ ذلك على أبي أيوب ، وأحضر بعض الجهابذة ، ودفع إليه مالا ، وأمره أن يعترف أنه لخالد ، ودس إلى أبي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ فسأله عن المال فاعترف به ، فأحضر خالداً فسأله عن ذلك ، فحلف بالله إنه لم يجمع مالا قط ، ولا ادخره ، ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا إلى كشف الحال ، فتركه أبو جعفر بحضرته ، وأحضر الجهبذ فقال له : أتعرف خالداً إن رأيته ، قال نعم يا أمير المؤمنين ، أعرفه إن رأيته ، فالتفت إلى خالد وقال : قد أظهر الله براءتك ، وهذا مال قد أصبناه بسببك ؛ ثم قال للنصراني : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين ، وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبي أيوب بعد ذلك شيئاً في خالد . (١)

ذلك مثل من أمثلة الوشاية في قصر أبي جعفر ، وقد استطاع المنصور أن يتعرف حقيقة الأمر ويتدارك الخطب قبل أن يستفحل ، ولكن هناك حالات أخرى لم تتضح لهذا الخليفة إلا بعد فوات الأوان ، وهاك واحدة منها :

ضمّ المنصور رجلا يقال له فُضَيل بن عِمران من أهل الكوفة إلى جعفر ابنه ، يكتب له ويقوم بأمره ، بمنزلة أبي عبيد الله مع المهدي ، وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأم عبيده ، فثقل عليها مكان فضيل ، فسعت

(١) الوزراء والكتاب ٩٩ ـ ١٠٠ .

به إلى أبي جعفر ، وادعت عنده أنه يلعب بجعفر ، فبعث المنصور بالريّان مولاه ، وهرون بن عَمْزوان مولى عثمان بن نَهيك إلى فضيل وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشوراً بذلك ، فصارا إليه فقتلاه ، وكان الفضيل دينا عفيفاً ، فقيل للمنصور في ذلك ، وأنه أبرأ الناس مما قُرف به ، وأبعدهم منه ، فوجه رسولا ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه ، فوجده قد قتل ولم يجف دمه ، واتصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر ، فطالب الريان ، فلما جيء به إليه ، قال له : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف مسلم بغير جرم ولا خيانة ؟ فقال الريان : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، فقال جعفر : ويلك يا ريان ، أكلمك بكلام الخاصة ، وتكلمني بكلام العامة ، خذوا برجله فألقوه في دجلة ؛ قال الريان . فأخذوا والله برجلي ، فقلت : أكلمك ، فقال : دعوه ؛ فقلت أبوك إنما يسأل عن فضيل بن عمران وحده ، ومتى يسأل عنه وقد قَتَل عمه عبدالله بن علي ، وقتل عبد الله بن حسن ، وغيره من أولاد رسول الله ظلما ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن الفضيل صؤابة تحت خصى فرعون [1] فضحك جعفر وقال : دعوه إلى لعنة الله [2] .

فإذا تركنا عهد المنصور وانحدرنا إلى العهود التي جاءت بعده ، وجدنا قصور الخلفاء تموج كذلك بالمؤامرات ، وتتجاوب بالفتن والدسائس ، ففي عهد المهدي كان يعقوب بن داود مسيطراً على شئون الخلافة فترة من

---

(١) الصؤابة بيضة القمل والبرغوث ، والمراد أنه إذا قبض بفرعون في كثرة القتل كان كالصؤابة في جسده .

(٢) الجهشياري ١٢٩ — ١٣٠

الزمن ، فاستطاع أن يولى أخاه صالح بن داود البصرة فهجاه بشار ابن برد بقوله :

همو حملوا فوق المنابر صالحا أخاك ، فضجّت من أخيك المنابر

فبلغ يعقوبَ بن داود هجاؤه ، فدخل على المهدى فقال له : يا أمير المؤمنين . إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ؛ قال : وما قال ؟ فقال : يعفينى أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، فأبى عليه ، وراجعه ، ولم يزل به إلى أن أنشده بيتين فيهما هجر القول وفحشه . (١)

فقال المهدى : وجّه إليه من يحمله لنا ، فخاف يعقوب أن يقدم بشار على المهدى فيمدحه ، فيعفو عنه ، فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط ، وقتله وألقاه فى البطيحة . (٢)

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع ذكرها الجهشيارى (٣) ، وابن طباطبا (٤) ، وغيرهما من المؤرخين والكتاب ، ولكننا نكتفى هنا بهذا القدر لنسارع فنتتبع الربيع بن يونس وابنه الفضل ، فمن أجلهما عقد هذا الفصل .

مع أبى أيوب الموريانى :

ينسب أبو أيوب الموريانى إلى قرية تسمى « موريان » ، وهى من قرى الأهواز ، واسمه سليمان بن مَخْلَد ، وكان خفيفاً ظريفاً ، حسن التأتى لما يراد منه ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شىء إلا وقد

(١) لا أحب أن أوردها هنا لما فيهما من ألفاظ نابية . . وهما فى الأغانى ٣ : ٦٧

(٢) الأغانى ٣ : ٦٧ — ٦٨

(٣) انظر مثلا ص ٢٦٤

(٤) انظر ص ١٦٢

نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر . (١)

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك فى مناسبة وقف فيها أبو أيوب موقف الحامى لأبى جعفر المنصور والمدافع عنه ، فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة والى مروان بن محمد على البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان فى بعض الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجر المال لنفسه ، فأحضره وقال له : هات المال الذى اختنته . فقال : لا مال عندى ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلادا ، فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب أبا جعفر ، ولكن أبا أيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبى أيوب ويشكره عليه . (٢)

فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة الموريانى وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه إلى قصره وأسند له بعض الأعمال ، وكانت كفاءة أبى أيوب ، وإقبال أبى جعفر عليه كفيلين أن يرقيا بالرجل ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد فأسندت له وزارة المنصور ، وضمت إليه الدواوين مع الوزارة ، وغلب على المنصور غلبة شديدة ، وصرّف أهله فى الأعمال ، حتى قالت العامة :

---

(١) الجهشيارى ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦

(٢) هذه القصة مضطربة فى المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وأدق ما استطعت أن أورده عنها . (انظر الجهشيارى ص ٩٨ وابن خلكان ١ : ٢١٦)

إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضربت العامة المثل بدهن أبي أيوب ، وبلغ من حب المنصور له ، أن أم سليمان الطلحيّة اتخذت لأبي جعفر مجلساً فى الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببَرْده وحسنه ، ولكنه قال لها : ما أحس بهذا النعيم ؛ قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس معى أبو أيوب يحدثنى ويؤنسنى ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنما هيأته لسرورك فتبعث إليه ؛ فبعث إليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب ، لم يطب لى هذا الموضع ولذته دون أن تكون معى ؛ فدعا له أبو أيوب وأقام معه [1] .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالف إحسانه وعظم كفاءته ، كان هناك شخص آخر بادى الطموح يشغل منصباً كبير الخطر فى قصر المنصور ، ذلك هو الربيع بن يونس الذى كان له منصب الحجابة [2] ، وكان الربيع جليلا نبيلا منفذاً للأمور ، فصيحاً ، كافياً ، حازماً ، عاقلا ، فطناً ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، بصيراً بما يأتى ويذر [3] .

وكان الربيع يتطلع إلى منصب الوزارة ، ولكن كيف السبيل إليه وشاغله أبو أيوب الموريانى ، وهو من هو خبرةً ومقدرة وحسن صلة بالمنصور ، ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ، وكان إذا عزم على أمرٍ اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى

---

(١) الجهشيارى ٩٧ — ٩٨

(٢) ابن خلكان ١ : ١٨٥

(٣) الفخرى ١٥٤

يكتب له النصر ، ويصل إلى الهدف الذى يبتغيه ، وهو فى سبيل مأربه لا يرحم ولا يكترث بالمثل العليا .

وهناك سبب هام مهد الطريق للربيع ، وذلل صعابه؛ ذلك هو ثقته ان المنصور لا يدين كثيراً بخلق الوفاء ، وانه من الممكن ان يسخط فى الغد على من يرضى عنه اليوم ، وان يقطع الآن رأساً كان يقبله منذ عهد قريب وكان ابو ايوب الموريانى نفسه يدرك ذلك فى المنصور ، رُوِى انه كان يجلس يوما ، يأمر وينهى وهو فى سلطانه وجلاله ، فأرسل له ابو جعفر يستدعيه ، فامتقع لونه وتغير ، ومضى إليه ثم رجع . فقال له بعض اصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا : زعموا ان البازى قال للديك ما فى الأرض حيوان اقل وفاء منك . قال الديك : وكيف ذلك ؟ . . قال : اخـــذك اهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على ايديهم ، واطعموك فى اكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك احد إلا طرت ها هنا وها هنا وصحت وصوّتّ وانا أُخذت من الجبال كبيراً فعلفونى وألّفونى ثم يخلىّ عنى ، فآخذ صيدى فى الهواء وأجيء به إلى صاحبى . فقال له الديك : إنك لو رأيتَ من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشَّىْء ، مثل الذى رأيتُ من الديوك لكنتَ أكثر نفوراً منى . وعلّق أبو أيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى . (١)

وإذاً فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من الدسائس والسعايات سلاحه البتار ، وليفتح قلبه ، وليمد الأمل للذين يشون

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ .

بأبي ايوب ويسعون به ، ووجد الربيع ضالّته فى ابان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبي ايوب ويشي به . حدث الجهشيارى قال : (١) كان ابان يكتب لأبي ايوب وكان يشرف على امره كله ، فحسده مَخْلَد ابن اخي ابي ايوب ، فرفع عليه سعاية إلى ابي جعفر بمائة الف دينار ، فأمر المنصور بأخذه بها ، فأدخل ابان بيتاً وطُيِّن عليه بابه ، ثم ندم مخلد على مافعله ، ولامه عمه أبو أيوب لما وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : أنا أؤدى عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أؤدى عنه كذا ، وقال مسعود أخو مخلد : أنا أؤدى كذا ، فتوزعها الموريانيون بينهم ، وأخرجوا أباناً من الحبس ، فخرج وفى نفسه ما فيها ، فكان يأتى أبا أيوب فيقيم عنده نهاره كله ، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبي أيوب ، فإذا انصرفوا وعلم أنهم قد وصلوا إلى منازلهم ، خرج حتى يأتى الربيع ، فيسعى بأبي أيوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصل الربيع ذلك إلى المنصور .

وتغير قلب المنصور على أبي أيوب شيئاً فشيئاً ، وأخذ حبه له يضعف رويداً رويداً ، واستمر الربيع فى زحفه وسعيه ، حتى لا يدع لأبي جعفر فرصة للتحقق او اليقين ، وظل الحال على ذلك إلى ان كبا ابو ايوب كبوة ، وارتكب خطأ مالياً فاستغل الربيع ذلك اوسع استغلال ، وظل يغرى به المنصور حتى نال مناه ، فأوقع المنصور بوزيره وفتك به ، اما هذه الزلة التى اقترفها الموريان فإليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف افراد حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق ان رخصت اسعار

---

(١) الوزراء والكتاب ١١٦ .

الطعام فى عهده رخصا واضحا ، فأشار ابو ايوب عليه ان يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وان يدخره ليباع عندما ترتفع الأسعار ، طمعاً فى الربح ، فأذن المنصور لوزيره فى ذلك ، وجرت الصفقة باسم ابى ايوب الذى كتب على نفسه كتابا بما اخذ من مال المنصور ثمناً للطعام الذى اشتراه ؛ ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة إلا جانباً واحداً. هو جانب الربح ، ولم يحالف التوفيقُ هذه الصفقة ، إذ تتابع الرخص ، فطالب المنصور وزيره بالمال ، وارهقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشىء بعد الشىء ، حتى ساءت حالته المالية دون ان يوفى ما عليه .

وعنَّت للموريانى فرصة ليسدد للخليفة دينه ، وليستعيد ولو مؤقتا مكانته ؛ وقصة ذلك ان المنصور كان يحب ابنا له يقال له «صالح» ويرقُّ عليه ، وكان اقطع اولاده قطائع خلاه ، فكان يريد اقطاعا له، فقال مرة لأبى ايوب : ما ترى حال ابنى ليس له ضيعة ! فأجاب ابو ايوب : ياامير المؤمنين، بالأهواز مزارع عاطلة ، تحتاج إلى ثلثمائة الف درهم ، تعمر بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلق له المنصور ثلثمائة الف درهم ، وامره بعمارتها لابنه صالح ، فأخذ ابو ايوب المال ، فأدى منه صدرا من خسارته فى الطعام ، ولم يعمِّر الضيعة ، وصار فى كل سنة يحمل عشرين الف درهم ويقول : هذا حاصل ضيعة صالح .

تلك كانت زلة ابى ايوب ، ولست احاول الدفاع عنه ، ولكنى اسجل اعتقادى ؛ وهو ان المنصور ايضا ملوم ؛ ملوم لأنه قبل ان يتاجر فى اقوات الناس . ولأنه اراد ان يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره فى الشطط .

وعلى أية حال فقد نقل « أبان » أنباء الضيعة الخيالية والتصرف فى الثلثمائة ألف درهم إلى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التى أمّل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع إلى المنصور فأعلمه . فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ . فأجاب . من « أبان بن صدقة » ا . وهو المصدر الخبير الذى لا يتطرق إلى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غرَّه الموريانى وخدعه ، واستجاب المنصور لإلحاح الربيع ، وقال لأبى أيوب : إنى أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ؛ وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص .

وعرف أبو أيوب — بعد فوات الأوان — أن « أبانا » يأتى الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شىء ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : ولم تفعل هذا ؟ إن كان مخلد قد رفع عليك سعاية ، فقد خلّصتك : فلماذا تريد قتلى ؟.. فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلدا أراد قتلى ؛ فقال له أبو أيوب : فعلتها ، اخرج فلا تقربنى ؛ فقال : آتى الربيع والله ، ثم لا أعود إليك ؛ وخرج حتى أتى الربيع ، وكاشف بالعداء أبا أيوب .

ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب إلى وكلائه بالأهواز أن يعجّلوا بحيلتين :

أولا : أن يغمروا مكان الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل فيها

ثانياً : أن يعمّروا حافة هذه الضيعة بإقامة القرى والمنازل ، وغرس النخل والأشجار ، وإنبات النبات ، حتى إذا حط الركب رحاله بالقرب منها ، ظن الناظر إليها أنها عامرة مزدهرة .

ونفذ وكلاء أبي أيوب أوامره بكل دقة وإخلاص ، وسار ركب المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال له أبو أيوب : هذه هي الضيعة ، ولولا فيضان الماء لأمكنك أن تجول فيها ؛ فرأى المنصور العمارة والخضرة ، فكاد الأمر يشتبه عليه ؛ ولكن الربيع يتدارك الأمر فيؤكد للخليفة أن هذا تمويه ، ويحثه على البقاء إلى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه من الداخل ، وإلا كانت رحلة هباء ؛ فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى تجف الأرض ليجول فيها بنفسه .

وفي أثناء إقامته بالأهواز ، وهي موطن أبي أيوب الموريانى ، عنت فرصة أخرى للربيع ليثير سخط الخليفة على الوزير ؛ وحكاية ذلك أن المنصور اشتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب : يا أمير المؤمنين ، أنى أهوازى سمكى ، ولنا عجائز يحسنّ صنعة السمك ، فإن رأيت أن تأذن لى فأهيئه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اتخاذه ، فمضى لذلك . وبعد فترة نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ، قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسُل أبي ايوب قد دخلوا بشيء كثير من السلال ، فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف السمك التى اتخذت ضروبا من الصنعة الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دس له فى هذا الطعام شيئاً ؟ فجزع المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه . (١)

وهكذا نجح الربيع فى ان يبلغ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطعام الشهى ، ولم يجدوا فيه بطبيعة الحال ما يضر .

المحل ، فأصبح الخليفة يخشى أن يسمه الوزير ، ولا نزاع أنه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة إلى أبعد درجات السوء عندما جفت الأرض ، فوجد المنصور أنها عامرة الظاهر غامرة فى الداخل فلم يقل شيئاً ، وعاد إلى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفى بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : ياخُوزىّ ، (١) أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ .. فقال : ياأمير المؤمنين ، إن للتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فأقلنى ؛ قال : لا يسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك ؛ وحبسه وحبس أخاه وبنى أخيه ، وطولبوا بالأموال ، وعُذّبُوا وضُيّقَ عليهم ، ثم أمر المنصور بأبى أيوب فقتل ، قال صالح ابن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدث أن ملكا من الملوك كان يساير وزيراً له ، فضربت دابة الوزير رجل الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحبنى ابداً وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبوننى أبداً وقد قتلته ، فقتلهم جميعاً .

قال صالح بن سليمان فعلمت أنه سيفعل ذلك فى أهل الموريانى ففعله وقتلهم جميعاً ، وما عدا ظنى .

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفى فى ذلك :

---

(١) نسبته إلى خوزستان ومنها أبو أيوب .

قد وجدنا الملوك تحسد من أعـ ـطته طوعا أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهى والأمـ ـر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأسَ بعد حفصٍ سليما نُ . ودارت عليه كف المدير
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمىّ بكاتب أو وزير

. . . وبموت أبي أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجنا ثمار دسه واثتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور[1] .

مع أبي عبيد الله معاوية بن يسار :

يقول ابن طباطبا [2] إن أبهة الوزارة ظهرت في عهد المهدى بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، فإنه رتب الدواوين ، وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة ، وكان يعمل كاتباً للمهدى ونائباً له قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى ، فكان غالباً على أمره ، لا يعصى المهدى له أمراً ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به ؛ فلما مات المنصور ، وجلس المهدى على سرير الخلافة فوّض إليه تدبير المملكة ، وسلم إليه الدواوين ؛ وكان مقدماً في صناعته ، فاخترع أموراً .

---

(١) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة في كثير من المراجع ، وما سقناه هنا خلاصة ما ورد في هـذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ؛ ويمكن الرجوع إليها في الجهشياري ٩٧ ــ ٩٨ ، ١٠٢ ــ ١٠٣ ، ١١٥ ــ ١١٦ ، ١١٧ ــ ١١٩ ، ١٢٠ ــ ١٢٣ وفي الفخري ١٥٢ ــ ١٥٣ وابن خلكان ١ : ٢١٥ ــ ٢١٦

(٢) الفخري ١٥٧ ــ ١٥٨

منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة ، وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم ، فلما ولى ابو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وصنّف كتاباً فى الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف كتاباً فى الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلا لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدى :

فى سنة ١٥٨ﻫ خرج المنصور حاجا وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس، وفى الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهدته ، ولكنه قاوم ،وسار الركب يحث الخطا ، غير أن المنية فاجأته قبيل دخوله مكة فى السادس من ذى الحجة من نفس العام ، ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فكتم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ألبس الربيع المنصورَ ملابسه وسنده وأجلسه خلف كِلَّة خفيفة ، يُرَى شخصه منها ، ولا يفهم أمره ، وحضر وجوه بنى هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع إليه فكأنما يحادثه ، ثم عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة فى تجديد البيعة للمهدى ، ففعلوا ، ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكياً ناحباً معلناً موت أبى جعفر المنصور (١) .

هل كان هناك ما يدعو إلى هذا ؟ . . ثم أليس للموت حرمة ؟ . وكيف جاز للربيع أن يسخّر جثمان المنصور هذا التسخير ؟ . لقد استخف المهدى واستخف وزيره أبوعبيد الله معاوية بن يسار

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

يا ربيع من أجل هذا التصرف ، وقال المهدى للربيع : ما منعك هيبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به . ! ! [1] والعجيب أن الربيع قام بهذا العمل يرجو من ورائه الحظوة عند المهدى ورجاله ، ولكن المهدى ورجاله سخروا به وكرهوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول فى العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة مخموراً بما فعل ، مغتبطا بما قدّم للخليفة الجديد ، ولكن الأخبار كانت قد سبقته ، وتركت فى نفس المهدى ووزيره أثراً سيئاً ، فلما وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله إلى باب أبى عبيد الله ؛ فقال له ابنه الفضل : يا أبى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله . ! فقال الربيع : يا بنى ، هو صاحب الرحل والغالب على أمره ، فليس ينبغى لنا أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، فلما وصل إلى الباب وقف عليه وطال وقوفه إلى أن جاءه الإذن ، فهم أن يدخل هو وابنه ، ولكن الحاجب قال له : إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل ؛ فقال له الربيع : ارجع فأعلم أبا عبيدالله أن الفضل معى ؛ ثم أقبل الربيع على الفضل فقال : هذا من ذاك[2] ، ثم خرج الآذن فأذن لهما جميعاً ، فدخلا ، ولكن أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كما كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن سفره وسيره وحاله ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه فى أمر المهدى ، وتجديده بيعته ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ؛ فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ؛ فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج ، وقصد منزله منصرفا ، وفى الطريق أقبل على الفضل

(١) الفخرى ١٥١

(٢) أى أن هذا التصرف موحى به من أبى عبيد الله .

فقال له : يا بنى ، أنت أحمق ؛ فقال الفضل : ما حمق ؟ . قال : أنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغى ألا نجىء ، فإذا جئنا وحجبنا كان ينبغى ألا ننتظر ، فإذا دخلنا فلم يأبه بنا كان علينا أن نرجع ولا نكلمه ؛ قال الفضل : نعم ، ذلك ما يدور برأسى ؛ قال الربيع : ذلك هو الحمق بعينه ، ولم يكن الصواب غير ما فعلتُه كلَّه ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لأُخلقَنّ جاهى ، ولأُنفقَنّ مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله . (١)

وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقد أراد الزلفى إلى المهدى ووزيره عن طريق إظهار الحرص على قيام خلافة المهدى وتجديد البيعة له ، ولكن مواهبه خانته فأَسَفَّ وكبا ، وإذ فشل فى الوصول إلى مأموله عن هذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفشل فيه ، وهو طريق الدس والائتمار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجاه والمال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخط مؤقتاً بعض الأحداث الهامة لنصل إلى حقيقة مروّعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سنة ١٦٣ هـ ، ومعنى ذلك أن هذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسه ومن سخطه البالغ على أبى عبيدالله ، مع أنهما كانا خلال هذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ — فيما قرأت — أن خلافا قام بينهما فى أثناء هذه الفترة ، ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الحالكة تحب التشفى ، وتكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادتها هذه المدة كراهية فى ابن يسار وعزما على النيل منه .

(١) الجهشيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨

ولكن كيف الطريق للنيل من أبي عبيد الله ؟ . لقد جهد الربيع ليجد منفذا فى أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التى بين أيدينا أن ابن يسار كان إلى الكمال أقرب ، فلم يجد الربيع بدآ من أن يلجأ إلى أعداء أبي عبيد الله ، لعله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعادته ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القُشَيرىّ ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل معى ، فهل عندك فى أمره حيلة؟.. قال الرجل — والفضل ماشهد به الأعداء — : أبو عبيدالله ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعفّ الناس ، حتى لو كانت بنات المهدى فى حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمتّهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتَى من ذلك ، وليس بمتهم فى دينه ، لأن عَقْده وثيق ، ولكنّ هذا كله يجتمع لك فى ابنه ، لأنه ردىء الطريقة ، مذموم السيرة ، يُرمَى بالزندقة ، والقولُ يسرع إليه ؛ فانفرجت أسارير الربيع ، وقبّل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة فى الوزير (١)

وكان المهدى كما قلنا آنفا شديدا على الزنادقة ، يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأله المهدى الوزير عن ابنه فأجاب بأنه حفّظه القرآن ، وعلّمه أمور الدين ؛ ولكن الربيع يواصل دسه وتحدّيه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواه من الشبان على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به وبجاه أبيه ؛ فجد المهدى فى طلبه حتى جيء به ، فسأله المهدى عن شيء من القرآن فلم يعرف ،

---

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩

فقال لأبيه : ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . قال : بلى ياأمير المؤمنين ، ولكن فارقنى منذ مدة فنَسيَه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدى : إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيرُه ؛ فأمر المهدى بعض من كان حاضرا بقتله ، فضربت عنقه [1]

تلك كانت المؤامرة الأولى التى دبّرها الربيع ضد أبى عبيد الله ، وقد كانت ضربة قاسية للرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن هذه المؤامرة لم تصل بالربيع إلى ما أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل للمهدى كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هذا تتفتق عبقرية الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بها الرجل نفسه ، ويوقع بها بين الوزير وسيده .

قال الجهشيارى [2] : ولما قتل المهدى عبد الله بن أبى عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدم المهدى : لك علىّ ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئاً لايضرك ، قال له : وما هو ؟ .. قال : إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدى فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : ياأمير المؤمنين ، قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟ . ففعل ذلك الخادم ، فكان هذا مما أوحش المهدى من أبى عبيد الله .

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤

ويروى ابن طباطبا هذه القصة مع شيء من التغيير فيقول [1] : ودخل أبو عبيد الله يوماً على المهدى ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فتقدم المهدى بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، انتظاراً لخروج الربيع ، فقال المهدى : يا ربيع أخرج ؛ فتنحى الربيع قليلا ، فقال المهدى : ألم آمرك بالخروج ! . . قال : ياأمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية ، وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ . . فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى ، إلا أنه قال : يا ربيع ، إنى أثق بأبى عبيد الله فى كل حال ؛ ولكن الواقع أن المهدى داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبى عبيد الله : اعرض ماتريد فليس دون الربيع سر . [2]

قال الجهشيارى [3] : ثم صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣ هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧ هـ وقلده الربيع بن يونس ، وقال ابن طباطبا [4] : إن المهدى قال للربيع : إنى أستحى من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عنى ، فحُجب عنه ؛ وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا انه تهيأ للربيع بذلك ما أراده من إزالة نعمة ابن يسار .

---

(١) الفخرى ١٥٩ ـ ١٦٠

(٢) انظر القصة أيضاً فى الأغانى ٢١ : ٨٠

(٣) الوزراء والكتاب ١٠٦

(٤) الفخرى ١٦٠

وقبل أن ندع الربيع يجدر بنا أن نقرر أن الربيع لم يكن يوقع ويأتمر برجال السياسة فقط ، وإنما كان يفعل ذلك أيضاً مع العلماء والقضاة . حدث العُتبي قال : كان بين شَريك القاضي والربيع حاجب المهدى معارضة فكان الربيع يحمل عليه المهدىّ ، فلا يلتفت إليه ، حتى رأى المهدىّ فى منامه شريكا القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقصّ عليه رُؤياه ، فقال الربيع : ياأمير المؤمنين ، إن شريكا مخالفٌ لك وإنه فاطميٌّ محض ، قال المهدى : علىَّ به ، فلما دخل عليه ، قال له : ياشريك ، بلغنى أنك فاطمى . قال له شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى ، إلا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ، قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد (ص) قال : أفتلعنها ياأمير المؤمنين ؟ قال : معاذ الله ؛ قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال عليه لعنة الله ، قال : فالعَنْ هذا — يعنى الربيع — فإنه يلعنها ، فعليه لعنة الله ، قال الربيع : لا والله ياأمير المؤمنين ما ألعنها ، قال له شريك : ياماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين ، وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا فإنى رأيتك فى منامى كأنَّ وجهك مصروف عنى وقفاك إلىَّ ، وما ذلك إلا لخلافك علىّ ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا ، فقال شريك : إن رؤياك ياأمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وإن الدماء لاتُستحل بالأحلام ، وإن علامة الزندقة بيّنة ، قال وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرّشا فى الحكم ... قال صدقت والله أبا عبد الله ، أنت والله خير من الذى حملنى عليك [1] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ : ١٧٨ — ١٧٩

مع البرامكة :

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادى ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سرّ أبيه ، وكان الفضل قد شب فى قصر المنصور ، وانحدر منه إلى قصر المهدى ، ورأى أباه يشى ويدبر المؤامرات ، فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ؛ ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشىء ، هو أن الأحداث التى قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فإذا كان أبوه قد تآمر ضد أبى أيوب الموريانى ، وأبى عبيدالله معاوية بن يسار ، وشريك القاضى ، فإن مؤامراته كانت ضد أفراد معدودين ، ولم تتسع شهرتها ، أما مؤامرات الفضل فقد كانت ضد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخـــلاف الذى ذهب ضحيته آلاف الناس وفيهم الأمين نفسه ، ومثلُ هذه المؤامرات والأحداث ، فضلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واسعة ، حتى ليوشك الإنسان أن يدعى أن غالبية المثقفين فى بقاع الأرض يعرفون عنها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة ما بالدراسات الإسلامية .

ونكبة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة من الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتمست العلل والأسباب التى حدتْ بالرشيد إلى أن يوقع بهم ؛ ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسى : هل من الممكن أن نضيف جديدا إلى ما قيل عن ذلك الموضوع ؟ . . وأجيب بشىء من الثقة والأمل ، أن هذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التى نقوم بعرضها فى هذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد .

فاولا : جهد المؤرخون والكتاب فى تعرف الأسباب التى دعت الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول إن هذا الاختلاف ، وذلك التلمس للعلل ، يجعلنى أعتقد أنهم كانوا أبرياء ، وهذه البراءة أوقعت المؤرخين فى حيرة ؛ لأنهم لم يتصوروا أن قسوة كهذه تنزل بقوم أبرياء بين عشية أو ضحاها ، فراحوا هنا وهناك ينقبون ، ويتسقطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلموا أن الرشيد نفسه لم يكن يعرف لما ارتكب سببا جوهريا ؛ ولو فكروا لأدركوا أن الإيقاع بالبرامكة لم يكن أشد عنفا من الإيقاع بأبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى ، وأبى أيوب الموريانى ، وغيرهم ممن تنوسى فضلهم على العباسيين ، ثم نُكّل بهم وبذويهم أشد ما يكون التنكيل ، وأقسى ما يكون الإيقاع ، دون جريرة تستدعى ذلك ، أو ذنب يقتضيه ؛ ومما يؤيد هذا الاتجاه ما أورده ابن خلكان :(١) أنه لما مات الفضل بن يحيى وُجد فى جيبه رقعة كتب فيها بخطه : قد تقدم الخصم [يقصد نفسه] والمدعَى عليه [يقصد الرشيد] فى الأثر ، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت هذه الرقعة إلى الرشيد ، فلما قرأها لم يزل يبكى يومه كله ، وبقى أياماً يتبين الأسى فى وجهه ؛ إذ كان يدرك أنه معتد فيما أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب .

وثانيا — أحب أن أبرز حقيقة هامة هى أن الذى يستعرض أحداث هذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظاً وأوفر نصيباً من نعيم الحياة ،

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٥

وإلا فقل لى بربك : مَنْ من وزراء هذا العهد وكبار رجاله غفل عنه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجاه ، دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ . لقد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنيها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧ هـ حيث أوقع الرشيد بهم ؛ فماذا نرى إذا قسنا هؤلاء بأبى سلمة الخلال ، الذى قتل فى نفس العام الذى بدأ فيه النصر ؛ وبأبى مسلم الخراسانى ، الذى نكب ، ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ؛ وبالفضل بن سهل ، الذى غُدر به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل ..؟

لا نزاع بعد هذا أن السؤال لا ينبغى أن يكون : لماذا أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من عسف المنصور ؟ ولِمَ لمْ يُرْمَ أحد منهم بالزندقة فى عهد المهدى ؟ . ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاما وهو السريع التغير الحاد المزاج ؟ .

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، ثم سجن آخرين ؛ وهذا فى تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التنكيل ، فعهدنا بالإيقاع أن يُقتَل مع الرجل أهله وذووه ؛ وإذاً فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقت فى الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ . . أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التى سارت بها الركبان ، أخذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيح للرشيد من شهرة عالمية لم تتح لسواه ، وصيت ذائع لم يتوافر لغيره ، لظلت نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .

وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العناية والاهتمام ، وقد صورهم

ابن طباطبا تصويراً بلغ الغاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم «الدولة البرمكية» ، ويبتدىء حديثه عنهم بكلمة قصيرة رائعة ، هاك نصها : اعلم أن هذه الدولة كانت غُرّة فى جبين الدهر . وتاجاً على مفرق العصر ، ضُربت بمكارمها الأمثال ، وشُدّت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبَذَلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً والبحار زاخرةً ، والسيول دافعةً ، والغيوث ماطرةً ؛ أسواقُ الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللَّهف ، ومعتصَم الطريد [1] .

وينسَب البرامكة إلى جدهم برمك ، وكان برمك هذا كاهن بيت النار بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالاشراف على هذا البيت ، كما كان قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة فى الجاهلية [2] والبرامكة بهذا ينتمون إلى أصل فارسى عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل وأشرف عمل فى دولة الفرس قبل الإسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان فى عسكر قَحْطَبَة ابن شبيب الذى سبق الحديث عنه فى الفصل السابق ، وكان خالد يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ، فكان يقال : إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومنّة ، لأنه قسّط الخراج ، فأحسن فيه إلى إهله ؛ وكان خالد مع قحطبة على سطح من سطوح منازل القرية ، التى بها عسكرهم ، فرأى خالد قطعان الوحش تقبل

---

(١) الفخرى ١٧٣

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩

نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أتينا فمر من ينادى بالسلاح ، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك . ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامى ، وأمر بالنداء ، ففعل ، وما هى إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى يقوده البطل « ابن ضبارة » وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل قائدهم ، وسئل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين . . ؟ فأجاب : رأيت الوحش ينفر نحونا فعلمت أن شيئاً عظيما أخافه وأذعره . ولما قتل ابن ضبارة غلط قحطبة فأرسل رأساً غير رأسه إلى أبى مسلم ، ثم عرف رأس ابن ضبارة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك وقال : إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثانى (١) .

ولما عقدت البيعة لأبى العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، أعجب السفاح بفصاحة ، فقال له : ممن الرجل ؟ . قال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال أنا كما قال الكميت بن زيد :

وما لى إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ ومالى إلا مذهبَ الحق مذهبُ

فأعجب به أبو العباس ، وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ، وكان سبيل ما يثبت فى الدواوين أن يثبت فى صحف ، فكان خالد أول من جعله فى دفاتر (٢) .

ولما قتل أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيراً للسفاح ، ويقال إنه تشاءم من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن كان يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل

---

(١) الجهشيارى ٨٧ ــ ٨٨ بتصرف فقد أورد مسألة الرأس قبل الحديث عن المعركة

(٢) الجهشيارى ص ٨٩

على وزارة السفاح حتى توفى هذا ، وتوفى أخوه المنصور ، فأقر خالداً على وزارته ، فبقى سنة وشهوراً ، وكان أبو أيوب الموريانى قد غلب على المنصور، فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلبَ الأكراد على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرَها سوى خالد ، فندبه إليها ، فلما بَعُد خالد عن الحضرة ، استبد أبو أيوب بالأمر كما سبق (١) .

ويقول المسعودى (٢) : إنه لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جَوْدة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ؛ لا يحيى فى رأيه ، ولا الفضلُ ابن يحيى فى جوده ، ولا جعفرٌ فى كتابته وفصاحته ، ولا محمدٌ فى رأيه وهمته ، ولا موسى فى شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثنى ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون « لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرَها إن كانت حرة ، ولا دابةٌ إلا وخالد حمله عليها » . وكان خالد أول من سمى المستميحين الزُّوَّار ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤَّال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف (٣) .

أما عن يحيى بن خالد ، فقد كان محظوظا فى بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد فى حجره ، ورضع لبان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والأغانى ٣ : ٣٦

وضعه المهدى تحت كفالة يحي ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره الهادى على وضعه أثناء خلافته ، فكان يحي للرشيد صفيا وأباً رحيما ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهادى حينما أراده أن يخلع نفسه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنه الهادى لذلك . (١)

فلما تقلد هارون الخلافة ، دعا يحي بنَ خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شيء ؛ ودفع إليه خاتمه (٢) « فنهض يحي ابن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسدّ الثغور ، وتدارك الخَللَ ، وجبى الأموال ، وعمّر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً ، لبيباً سديدا ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرما وجوداً ، ممدَّحا بكل لسان ، حليماً عفيفاً ، وقوراً مهيباً ، وله يقول القائل :

لا ترانى مصافحا كف يحي ... انى إن فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحي ... لسخت نفسه ببذل النوال (٣) »

وكان يحي يحظى بعطف الخيزران وإقبالها عليه ، وتحبيب ابنها فيه ، ومن أجل هذا كان يحي يعرض عليها أمور الدولة ، ويُورد ويُصدر عن أمرها ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ٣ : ٢٢٣

(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤

فلما ماتت الخيزران سنة ١٧٣ هـ استقل يحيى بالأمر ، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه . (١)

ومن أعمال يحيى أنه شق نهراً كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت بسببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ، وتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى على المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين والآداب واتخذ كتاتيب لليتامى . (٢)

وكان ليحيى بن خالد أبناء أربعة ، هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم سادة نجب ، وعباقرة أمجاد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصيرة :

الفضل بن يحيى : كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمُّه زبيدة بنتُ منير الرشيدَ ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

كفى لك فخراً أن أكرم حرة ... غذتك بثدىٍ والخليفةَ واحدِ
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها ... كما زان يحيى خالداً فى المشاهدِ (٣)

وكان الرشيد يدعوه « أخى » ، وقد أولاه الخاتم ، ثم رأى أن ينقل الخاتم إلى جعفر ، إذ كان الفضل متزمتاً لا يشرب النبيذ ، ولا يميل إلى المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى : إنى احتشمت أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فاكفنيه ؛ فكتب

---

(١) الجهشيارى ١٧٧ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣
(٢) الجهشيارى ١٧٧
(٣) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩ والفخرى ١٧٧

يحيى إلى الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك ؛ فكتب إليه الفضل : قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وأطعت ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه (١) .

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك الحين ، وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته أبدا (٢) .

وفى سنة ١٧٢ﻫ ظهر يحيى بن عبدالله ببلاد الديلم على ما سلف ذكره ، وقوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض إليه الفضل ، وقد استطاع الفضل بدهائه أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن أمّنه ووعده وأوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبرّ الفضلَ وشكر فعله (٣) .

وفى سنة ١٧٦ﻫ قلده الرشيد المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك فشخص إلى عمله سنة ١٧٨ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه وساروا معه ، فلما وصل إلى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبنى المساجد والحياض والربط ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل الزوار

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩
(٢) الجهشيارى ١٩٤
(٣) الجهشيارى ١٩٠

والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت [1] .

وبلغ كرم الفضل الغاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحي ترك الناس كلهم شعراء
علّم المفحَمين أن ينطقوا الشعـ ـر رصيناً ، والباخلين السخاء [2]

وكان الرشيد يثق فيه ويجله ، ومن أجل هذا جعل محمداً ابنه فى حجره ، وأسكنه معه فى قصره المعروف بالخلد وضم إليه أعماله ودواوينه [3] .

جعفر بن يحي : كان جعفر بن يحي فصيحاً لبيباً ، ذكياً فطناً ، كريماً حليما ، وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ، وجدّ أخيه الذى غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مرّ ذكره ، فصار جعفر متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى ليقال إن الرشيد اتخذ ثوباً فضفاضاً ، كان يدخله هو وجعفر جميعاً بملابسهما ، وقلّده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب والطرز فى جميع الكور [4] .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تُقطع الرحم القريب وتُكفَر النُّـ ـعمى ولا كتقارب القلبين
يُدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى فإذا هما نفس ترى نفسين [5]

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٠٩
(٢) الجهشيارى ١٩٥
(٣) المرجع السابق ١٩٣
(٤) الجهشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧
(٥) الأغانى ١٧ : ٢٦

والذى يتطلع إلى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما حياة الرشيد ومملكته ، ورُدَّت لهما جميع الأمور فيها ؛ فبينما كان المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية إلى جعفر ، وقد قُلِّده سنة ١٧٦ بالاضافة إلى عمله مع الرشيد ، وقد أقام جعفر مع الرشيد وأناب عنه من أدار هذه البقاع الشاسعة [١] . ثم كما كان محمد الأمين فى حجر الفضل كان عبد الله المأمون فى حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمام ، وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له ، وأخذ الإيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به إلى العمال [٢] .

وقد امتاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجد واللهو ، فكان بذلك أقرب إلى نفس الرشيد من أخيه كما مر ، وقد وصل جعفر إلى مكانة من الرشيد أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ومما يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس وقد رواها الجهشيارى [٣] والأصفهانى [٤] وابن خلكان [٥] وابن طباطبا [٦] . وهاك موجزاً لها :

قال إبراهيم بن المهدى : جلس جعفر بن يحيى يوما للشرب . وأحبّ الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هيىء المجلس ولبسنا الثياب المصبغة . [وكانوا إذا جلسوا فى مجلس

---

(١) الجهشيارى ١٩٠

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) الوزراء والكتاب ٢١٢ — ٢١٤

(٤) الأغانى ٥ : ١١١ — ١١٢

(٥) وفيات الأعيان ١ : ١٠٦

(٦) الفخرى ١٨١ — ١٨٢

الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر .]

ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد سوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسنا نشرب ، ودارت الكئوس وخفقت العيدان ، فجاء في هذه الساعة عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يقبل ، فكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، فأدخله الحاجب ظانا أنه عبد الملك الذي أذن له جعفر بادخاله ؛ فلما دخل عبد الملك ورآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب ، وأدرك عبد الملك الحرج الذي وقع فيه جعفر وأصحابه ، فدعا غلامه وناوله سواده وقلنسوته ، وأقبل على المجلس وسلّم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم ، فدنا منه خادم فألبسه حريرة ، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشرب ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ؛ ثم باسطنا ومازحنا ، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك ؛ فقال : إن في قلب أمير المؤمنين سخطا ، فتسأله الرضا عني ؛ فقال جعفر : قد رضي عنك أمير المؤمنين . قال : وعليّ . . . و . . . و ٤ درهم ، قال جعفر : إنها لعندي حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنها أنبل لك ، وأحب إليك ؛ قال : وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ؛ قال : قد زوّجه أمير المؤمنين العالية ابنته ؛ قال : وأحب أن

يخفق لواء على رأسه ؛ قال : قد ولاّه مصر . وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وابراهيم بن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خُلع عليه وزوّج ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله ، فلما صرنا إليه قال : تعلقت قلوبُكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم علم آخره ، فإني لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأتُ القصة كما كانت من أولها إلى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسنَ والله ، حتى إذا أتممت خبرَه قال : ماصنعتَ به ؟ . فأخبرته بما سأله ؛ فجعل يقول : أحسنتَ ، أحسنت .

ولما هاجت العصبية بالشام سنة ١٨٠ هـ قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج إليها ، أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : أنا أقيك بنفسي : وشخص لها ، فسكّن الفتنة ، وأعاد الناس إلى الأمن والسكون (١) .

وقد زاد اتصال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل معه في كل أمر من أموره ، في الجد واللهو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من ذلك ، وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمَنُ أن ترجع العاقبة عليه في ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحبّ إليّ ، وآمن عليه عندي ؛ فطمأنه الرشيد ، وقال له : لا عليك يا أبت (٢) .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٠

(٢) الجهشياري ٢٢٤ — ٢٢٥

وقبل أن ندع يحي وابنيه هذين نسوق عنهم القصة الطريفة التالية :

قال أبو القاسم الزُّهرى : كنت أسير مع يحي بن خالد وهو بين ابنيه الفضل وجعفر ، فإذا بأبي اليَنْبَغِيِّ العباس بن طرخان واقف على الطريق فنادانى : يازهرى ، فاستشرفت له ، فقال :

صحبتُ البرامك عشرا ولا[1] ... وبيتى كراء وخبزى شرا

فسمعه يحي ، فالتفت إلى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما . ؟ قال الزهرى : فلما كان من الغد جاءنى العباس فقلت له : ويحك ! ما هذا الذى عرَّضت له نفسك بالأمس ؟ . . فقال : اسكت ، ما هو إلا أن انصرفتُ إلى منزلى ، حتى جاءتنى من قبل الفضل بَدْرة ، ومن قبل جعفر بَدْرة ، ووهب لى كل واحد منهما دارا ، وأجرى لى ما يكفينى[2].

محمد و موسى : كان هذان من سادة رجال العصر وأمجاده ، ولكنهما لم يصلا إلى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما إبراهيم الموصلى مع الفضل وجعفر بقوله : أما الفضل فيرضيك بفضله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل ما لا يجد[3].

وفى الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحي بن خالد وهمُ ... أربعة ، سيد ومتبوع

---

(١) ولا : متوالية .

(٢) الجهشيارى ٢٠١ — ٢٠٢

(٣) الجهشيارى ١٩٨

الخير فيهم إذا سألت بهم مفرّق فيهمُ ومجموع.[1]

وكان ليحيي ابن خامس يسمى ابرهيم ، توفى وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور فى إدارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيي أحضر يوما المؤدبين والمشرفين الذين ضم إليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال إبرهيم ؟ فقالوا : قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، واتخذنا له من الضياع .. قال : ما عن هذا سألت ، هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مِنَناً ؟ فسكتوا ؛ فقال يحيي : لقد قصرتم ، هو إلى هذا أحوج ، وأمر بحمل ٥٠٠ر٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه فى الناس[2].

هذا هو يحيي وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهد ، وسادة هذا العصر غير منازعين ، وبينما كان هؤلاء يشغلون هذه المكانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ، ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم على ما سيجيء مفصلا ، وكانت النتيجة لتلك الوشاية أن بدت من الرشيد مظاهر الفتور تجاه البرامكة ، وفيما يلى صور لذلك الفتور :

فى سنة ١٧٩ هـ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ؛ وكانت أهمية هذا — بالإضافة إلى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين إليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدسائسه ، وجعل الرشيد أقرب إلى الاستجابة له[3] .

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٨٢

(٢) الجهشيارى ١٨٠

(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣

وفى نفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل الرشيد منصور بن يزيد بن مزيد خال المهدى ، وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمال شيئاً فشيئاً ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ١٨٣ هـ سخط على الفضل ، فشخص إليه إلى الرَّقَّة ، ومعه أمُّه زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقره مع الأمين لحضانته ، ولم يردّ إليه شيئاً من أعماله (١) .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلّم ، فرد الرشيد رداً ضعيفاً ؛ ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال : أيدخل عليك منزلك أحدٌ بدون إذن ؟ . فقال : لا . قال فما بالنا يُدخل علينا بدون إذن ؟ . . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ، حتى أن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فإنى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيها ؛ فاستحيى هارون ، وقال ما أردت ما تكره (٢) .

وحدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عَرْض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله يحيى بن خالد خيراً ، تصدى للأمور وأراحنى من الكد ، ووفّر أوقاتى على اللذة ، ثم دخلت عليه وقد شرع يتغير عليهم ، وكان الفضل بن الربيع

---

(١) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الأثير ٦ : ٤٩

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحي بالأمور دوني ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها ! ؛ قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عقيب ذلك (١) .

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ، بل استمر يشي ويأتمر حتى كلل سعيه بالظفر ووصل إلى الغاية التي أجهد نفسه من أجلها ، وتمّت نكبة البرامكة ، التي يرويها المؤرخون كما يلي :

كان الرشيد قد حج ومعه جعفر بن يحي ، فلما عادا من الحج ركبا السفن من الحيرة إلى الأنبار ، ثم صحبه جعفر إلى قصر الخلافة بالأنبار ، وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أني أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ؛ فصار جعفر إلى منزله وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف إلى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسروراً . (وقيل إنما استدعى غلامه ياسراً) وقال : قد انتخبتك لأمر لم أر له محمداً ولا عبدالله ، فحقّق ظني واحذر أن تراجعني فتهلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتني بقتل نفسي لفعلت ؛ قال : اذهب إلى جعفر ابن يحي وجئني برأسه الساعة . فوجم لا يحير جواباً ، فقال له : مالك ؟ ويلك ! ! قال : الأمر عظيم ، وددت أني مت قبل وقتي هذا ، فقال : امض لأمري ، فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرُق أو يُفادى

---

(١) الجهشياري ٢٢٥ ــ ٢٢٦ والفخري ١٨٤

وكل ذخيرة لا بد يوماً وإن بقيت تصير إلى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالى فديتك بالطريف وبالتلاد

فقال جعفر : يامسرور ، سررتنى بإقبالك وسؤتنى بدخولك من غير إذن ، فقال : الأمر أكبر من ذلك ، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك فقد أمرنى أن آتيه برأسك ؛ فوقع جعفر على رجليه يقبلهما ، وقال : عاود أمير المؤمنين ، فإن الشراب قد حمله على ذلك ؛ فقال : ما أظنه شرب اليوم؛ قال : دعنى أدخل دارى وأوصى ؛ قال : لا سبيل إلى الدخول ، ولكن أوص ما بدا لك ؛ قال : لى عليك حق ، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة ؛ قال : تجدنى سريعاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين ؛ قال : خذنى معك ، وأعلمه أنك نفذت أمره ، فإن ندم أخبرته بالحقيقة ، وإن أصرّ عدت فنفذت ما يريد ؛ قال : أما ذلك فنعم . وسار به إلى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ، ودخل على الرشيد فأخبره بقتله ، فصاح الرشيد : وأين رأسه يا ابن اللخناء ؟ . فعاد مسرور إلى جعفر فضرب عنقه وحمل إلى الخليفة رأسه [1] .

ووجّه الرشيدُ مَنْ أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحُوِّل الفضل ابن يحيى ليلا فحبس فى بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى فى منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، وأرسل الرشيد من ليلته إلى سائر البلاد فى قبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأسبابهم وكل مالهم ،

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨ـ٢٨٩ وابن الأثير ٦ : ٥٨ وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦

فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد وأمر أن يُنصَب رأسه على جسر ، ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر [1] .

ولم يوجد ليحيي بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ، وللفضل إلا أربعون ألف درهم ، ووجد لمحمد بن يحيي سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء ولا لجعفر شيء [2] .

تلك كانت نكبة البرامكة ، فما أسبابها ؟ وأحب قبل أن أروى هذه الأسباب أن أذكر أنها لو كانت أسباباً واضحة ترتبت عليها هذه الكارثة لأوردناها قبل إيراد الحادثة نفسها ، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة تمت ، ثم أخذ المؤرخون يتلمسون العلل والأسباب لها بعد حدوثها ، فلعل ما نسير عليه هنا هو تصوير للواقع كما كان . أما هذه الأسباب فإليك عنها البيان :

مسألة العباسية : رُوى أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر ، ولم يكن له صبر عنه وكان الرشيد أيضا شديد المحبة لأخته العباسة ، وكانت من أعز النساء عليه ، ولا يقدر على مفارقتها ؛ فكان إذا غاب أحدهما (جعفر أو العباسة) لا يتم له سرور ، فرأى أن يُزَوِّج جعفرُ من العباسة ليحل لهما أن يجتمعا ، ولكنه اشترط على جعفر أن يكون هذا الزواج لهذا الهدف فقط ، وحرم عليه الاجتماع بالعباسة دون أن يكون هو ثالثهما ، فتزوجها على ذلك ، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها عينَه ، ودون

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨

(٢) الجهشيارى ٢٤١

أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسة أن تلتقى بزوجها وتخلو به ، ولمّحت له بذلك ، فأعرض كل الإعراض ، فلما أعيتها الحيلة بعثت إلى عتّابة أم جعفر ، وطلبت منها أن تقدمها إلى ابنها جعفر كأنها جارية من جواريها ، فامتنعت عتابة ، ولكن العباسة طمأنتها وأنذرتها وأغرتها حتى قبلت ، ووعدت ابنها بأنها ستقدم إليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجّلها جعفر ، وأخذت تسوّف حتى تشوق جعفر ، فقالت - بعد أن اتفقت مع العباسة - : سأقدمها لك الليلة ؛ فشرب جعفر بعض النبيذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسة له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ . . . قال : وأى بنات الملوك أنت . ؟ . قالت : أنا مولاتك العباسة ؛ فذُعر جعفر ، وذهب إلى أمه وقال لها : بعتنى والله رخيصاً ، واشتملت العباسة منه على ولد ، وتمارضت حينما ظهر بها الحمل ، ثم استأذنت فى الذهاب للحج فذهبت ووضعته هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمره إلى غلام وحاضنة . (١)

حكاية يحى بن عبدالله : سبق لنا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استنزله الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أمانا ، واستقبله استقبالا حسناً ، ثم وُشىَ بيحيى بن عبدالله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك الرشيد به

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٨٦ — ٢٨٧ وابن الأثير ٦ : ٥٧ وابن خلكان ١ : ١٠٧ والفخرى ١٨٥

اتصل بجعفر وقال له : اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون غداً خصمك محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً ، ولا آويتُ محدثا ، فرقَّ له ، وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله ؛ قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ؛ فوجَّهَ معه من أبلغه مأمنه. (١)

ويرى ابن خلدون (٢) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . . . . فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٣) أن سعيد بن سالم سئل عن جناية البرامكة التى استوجبت غضب الرشيد فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل ملول ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب وما رأوا مثلها عدلا وأمنا ، وسعة أموال وفتوح ؛ وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بآمالهم دونه ـ والملوك تتنافس بأقل من هذا ـ فتعنَّت عليهم وتجنَّى ،

---

(١) الأغانى ١٧ : ٤٣ وابن الأثير ٦ : ٥٧

(٢) المقدمة ١١ — ١٢

(٣) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

وطلب مساوئهم؛ ووقع منهم بعض الإدلال خاصة جعفر والفضل .

تلك هى الأسباب التى يذكرها المؤرخون، وهى كلها كما يبدو لى أسباب ساذجة يمكن نقدها أو نقضها ، ولكن الأسباب الحقيقية كانت خفية فيما أعتقد ؛ إنها تلك اليد التى تعبث فى الظلام ، وهذه الأفعى التى تنفث سمها من وراء ستار ، وقد انتبه لذلك ابن خلدون [1] فقال إنه بسبب نبوغ البرامكة وبعد صيتهم ، كُشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ،ودب إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كبرَ هذا الأمر الفضلُ بن الربيع وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف هذه الأسباب ، فيعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيها لدى ولى الأمر ، وإليك عن هذا بعض التفاصيل :

فى أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل ابن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران — صاحبةُ الأمر والنهى فى الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب إلى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثّق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلى النفوذ فى حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئاً يذكر من نباهة الذكر إلى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ ، يقول ابن الأثير [2] فى ذلك انه « لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم الفضل بن الربيع

---

(١) المقدمة ص ١٢

(٢) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠

وأخذه من جعفر بن يحيى » ، ويضيف الخضرى[1] : ان الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدى ، إنى كنت لأهم لك بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر . وكان بيده نيابة عن والده .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدماً ، وأقوى مركزاً من أن يزحزحهم الفضل بيُسْر أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثمَّ احتاج الى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل إلى بغيته ، وكان فى حيله واثماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ؛ فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبى أيوب الموريانى عينا له على أبى أيوب ، كذلك اتخذ الفضلُ إسماعيلَ بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيرى عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلى بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة وأوعز إليه أن يشى لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه[2] .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ، ويدرك مكانتها لديه ، فعرَّفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى فى القصر كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدتَّ ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى وجعفر — كما سبق — إلى العهد

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

للمأمون ، وشدّد جعفر الأيمان فى الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة طيبة ، ليغرى زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله ابن سليمان بن وهب فيقول : إن من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع . ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلّل يحيى فى كل رقعة بعلة ولم يوقع فى شىء منها ، فاضطرب الفضل غيظاً وخرج وهو يقول :

متى وعسى يثنى الزمانُ عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف وتحدث من بعد الأمور أمور[1]

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يضمر السوء فأخذ « يستر المحاسن ويظهر القبائح » كما يقول ابن خلكان [2] ، ولهذا نجده خلف الأسباب الساذجة التى سبق إيرادها ، فهو الذى كان ينقلها مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وهو الذى كان يبرز منها ما خفى ويعظم ما صغر :

فى حكاية يحيى بن عبدالله ، عرف الفضلُ قصة إخلاء سبيله عن طريق العين التى كانت له فى قصر جعفر ، فنقل الخبر إلى الرشيد مع التخويف من يحيى بن عبدالله ، والتحذير من أن يصل إلى الديلم فتتجمع

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤١٢
(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

حوله الجموع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة فى هذا المساء ، فجعل الرشيد يلقّم جعفراً ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى؛ فأجاب: هو بحاله فى السجن، فقال: بحياتى؟ فغضب جعفر وقال: لا وحياتك وقص عليه أمره ، وقال : علمت أنه لا مكروه عنده ؛ فقال الرشيد : نِعْم ما فعلت ، ما عدوت ما كان فى نفسى . فلما قام جعفر . نظر له الرشيد وقال : قتلنى الله إن لم أقتلك [1] .

وفى حكاية العباسة بجد زبيدة — وقد ملأها ابن الربيع حنقاً على البرامكة ورغبة فى التخلص منهم — تقص على الرشيد خبر اتصال جعفر بزوجته ، دون أن تذكر له حيلة العباسة على جعفر فى ذلك ، وتضيف زبيدة : أن رائحة هذه الفضيحة قد شاعت فى جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها [2] .

ولم يكتف الفضل بن الربيع بهذا بل أخذ يدس إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة ، وأنهم ملاحدة وثنيون يحنُّون إلى دين آبيهم القديم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة إليهم ، ويوعز إلى مغن أن يغنى الرشيد بهذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعِدْ ... وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مَرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد [3]

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨ — ٥٩

(٢) المسعودى : مروج الذهب : ٢ : ٢٨٧

(٣) أحمد أمين : هرون الرشيد ١٢٢

ودس الفضل كذلك من رفع إلى الرشيد مقطوعة شعرية بدون توقيع ، جاء فيها :

قل لأمين الله فى أرضه ... ومن إليه الحل والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا ... مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التى ما بنى الـ ... ـفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها ... وتربها العنبر والندّ
ونحن نخشى أنه وارث ... ملكك إن غيبك اللحد
ولا يباهى العبدُ أربابه ... إلا إذا ما ما بطر العبد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر السوء [1] .

وكُتب للفضل النجاح ، وتمت نكبة البرامكة ، ولكن العجيب أن الإيقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع ، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكراهم ؛ حدّث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلىّ . وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادى ويطلب منى أن أعود إليه للسمر والأنس ، وقد ذهبت إليه مرة فاقبل علىّ يستنشدنى ، ويسألنى فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولىَّ الشباب فما له من حيلة ... وكسا ذؤابتىَ المشيبُ خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم ... بالأمس أعظم أهلها أخطارا؟

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية فى وجهه ، وما رأيت منه خيراً بعد ذلك [1] .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد فى حضرته ، وأضاع ما وراء بابه ، ثم ندم الرشيد على ما كان منه فى أمر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه نحوهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم ، وكان كثيراً ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم

من اللوم ، أوسدّوا المكان الذى سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهملة ، وأن الرشيد توفى وفى الديوان أربعة آلاف خريطة لم تفض [2] .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أن يرثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك [3] ولعل الرشيد أحس بأنه لو ترك للشعراء العنان لأسرفوا فى رثائهم وذكر مآثرهم ، مما قد يهيج الشعور ضد الخليفة ، ويكرر ذكرى هذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لها على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه إذا كان الرشيد استطاع بتاجه

---

(١) الأغانى ٣ : ١٦٤

(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨

(٣) الفخرى ١٧٤

وصولجانه أن يسجن ويقتل ، فما كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر ولا أن يمسك منه قلمه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون فى البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون فى أدبهم الخالد ما كان لبنى برمك من مآثر وأفضال ، وفيما يلى نماذج من ذلك الرثاء :

قال الرقاشى :

أخَيَّ استرحنا واستراحت ركابُنا
وأمسك من يُجدِى ومن كان يَجْتَدى

فقل للمطايا : قد أمنت من السُّرى
وقطعِ الفيافى فَدْفداً بعد فدفد

وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر
ولن تظفرى من بعده بمسوَّد

وقل للعطايا : بعد فضل تعطَّلى
وقل للرزايا : كلَّ يوم تجدَّدى

وقال أيضاً :

هَدَا الخالون من شجو فناموا ... وعينى لا يلائمها منام
وما سَهِرَتْ لأنى مستهام ... إذا أرق المحب المستهام
ولكنّ الحوادث أرَّقَتْنى ... فلى سهر إذا هجد النيام
أصيبت بسادة كانوا نجوماً ... بهم نُسقى إذا انقطع الغمام
أما والله لولا خوف واشٍ ... وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا كما للناس للحجر استلام
على المعروف والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام

وقال دعبل الخزاعى كما فى رواية ابن خلكان أو المنذر بن المغيرة كما فى رواية البيهقى :

ولما رأيت السيفَ قد قدَّ جعفرا ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فرب عظيمة كشفتَ ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر شماتته : أبشر لتَأتيهمُ العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل برمك فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واهاً لكمُ ولأيامكم المقتَبلَة
كانت الدنيا عروساً بكمُ فهى الآن تكول أرملة (١)

ويقول Richard Coke (٢) عن أسرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلى :
« وبلغت الإدارة والنظام ذروة النجاح فى عهد الخلفاء العباسيين الأول بفضل الخدمات التى قدمتها أسرة البرامكة العظيمة ، تلك الأسرة التى كان أفرادها موهوبين عبقرية ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يماثل سلطان الخليفة

(١) الجهشيارى ٢٣٦ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهقى : المحاسن والمساوئ ص ١٢٢
(٢) Baghdad, the City af Peace p.p. 68-73 abridged.

«وفى نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقى بأفراد هذه الأسرة كلهم فى أعماق السجون ، وصادر أموالهم الواسعة، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التى نزلت بالبرامكة إحساساً عميقاً من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين .

«وقد وصل جعفر إلى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضاً لأنه كان كريماً إلى درجة الإسراف ، والأدب العربى يحوى أقاصيص لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذى كثيراً ما كان إلى الإفراط أقرب ، وهناك أيضاً حكايات تفوق الحصر عن ألفته لهارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته فى تصريف الأمور .

«ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغا فى حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد »

الفضل بن الربيع بين الأمين والمأمون :

تعتبر المؤامرة التى دبرها الفضل بن الربيع هذه المرّة أفظعَ مؤامرات هذا العهد كله وأقساها ؛ فعهدنا بالمؤامرة تنتهى بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل فى هذه المرة دفع آلاف الناس إلى الموت ، وزج بهم فى حرب طويلة مدمرة ليصل من هذا إلى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هذه المرة ، بل كُتب لمسعاه الفشل ، وأصبح الأمين وقوداً لهذه النار التى أشعلها وزيره ، وأجج أوارها ناصحوه ومستشاروه .

ويرجع تاريخ هذه المؤامرة إلى حياة الرشيد ؛ فقد سبق أن ذكرنا

أنه لما ثار رافع بن الليث بخراسان ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرَّقَّة ومعه جيش كبير ليواجه بنفسه ذلك الثائر ، ولكن الرشيد مرض فى الطريق فحط رحاله فى طوس ، ثم أرسل ابنه المأمونَ مع بعض الجند إلى خراسان وبقى هو ومعه وزيره الفضل بن الربيع وأمواله ومتاعه وبقية جيشه على أمل أن تزول عنه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيره وقواده وكبار رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع ما فى عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع [1] ؛ وأوصى كذلك أن يسير باقى الجيش من طوس إلى خراسان ليساعد المأمون فيما هو فيه من نضال وكفاح ، وأخذ بذلك العهود على الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهما من كبار رجاله الذين كانوا معه . [2]

هذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبر أمراً مخالفاً ، ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له فى كل يوم ألف دينار وأرسل معه كتبا ظاهرة فيها السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتُسَلَّمُ هذه الكتب إذا كان الخليفة حياً ، وكتبا باطنة إلى الفضل وإسماعيل بن صبيح تسلم بعد وفاة الخليفة وفيها أمرٌ إلى القوم بالقفول إلى بغداد ، والاحتياط على ما فى العسكر بحيث لا يتسرب منه شىء

---

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح

(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٧٣ وابن الأثير ٦ : ٧٣

إلى خراسان ، ووصلت أخبار هذه الكتب السرية إلى الرشيد فطلبها من بكر فأنكر وجود شيء منها معه ، فأمر الرشيد بضربه وطلب إلى الفضل تقريره فإن أقر وإلا ضَرَبَ عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل سيستجيب للغدر وأنه لن يكترث بأوامر الرشيد إذا مات الرشيد ، ومن ثَمَّ أرسل بكر إلى الفضل من يقول له أن يسوِّف فى تنفيذ أوامر الرشيد معه لأنه يحمل من الأمين سراً خطيراً فيه للفضل نفع وخير ؛ واستجاب الفضل كعادته إلى رغبة الأمين الذى قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ وماطل فى تعذيب بكر وتقريره . (١)

هذا هو الدور الأول الذى لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا إلى استجابة الفضل ، وأما الفضل فقد أوفى بما أراد الأمين وزاد ، فإنه تظاهر بالقسوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما إن صعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجَّى على سريره - كما فعل أبوه من قبل مع المنصور - وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التى أقسم على الوفاء بها أمامه ، وسارع إلى بكر بن المعتمر وهو فى سجنه فقال للسجان : خلوا عن أبى خُلَيْدَة ؛ فقال بكر : ليس هذا وقتاً تكنِّينى فيه ؛ فدعا الفضل بخلَع فخلعها على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك فى أمير المؤمنين ، ثم أخذه معه إلى حيث وضع جثمان الرشيد فاطَّلع بكرا عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد لبكر أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التى معك ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٣ والجهشيارى ٢٧٣ — ٢٧٤

فأحضر بكر صندوقا للمطبخ قد ثُقبت قوائمه وجعلت الكتب فيها ، وجُعل الجلد فوقها ، فشُقّ الجلد وكسرت القوائم ، وسلّم بكر الكتب إلى أصحابها. وكان بين الكتب كتابٌ إلى الفضل يطلب إليه العودة بالمال والجند والعتاد ، وكتابٌ إلى صالح بن الرشيد يأمره ألا ينفّذ رأياً أو يبرم أمراً إلا برأى الفضل ، وأقر الأمين الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأمر ألا يصرف عطاء أو رزق للعسكر بدون رأى الفضل ، وأقر كل من كان إليه عمل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة ؛ فلما قرءوا الكتب أخذوا يتشاورون فى تنفيذ وصية الرشيد فيلحقون بالمأمون ، أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون إلى بغداد ، ولكن الفضل وهو كبير الركب ومدبر أمره صاح فيهم : لا أدع مَلِكا حاضراً لآخر لا أدرى ما يكون من أمره ، واستغل رغبة الجند فى العودة إلى أهليهم ، فأمرهم بالعودة إلى بغداد ، غير مكترث بما عاهد الله عليه ، ولا موفٍ بما وعد أن يقوم به [1] .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضل ، وأن يغفر له هذه الزلة ، كما عفا عنه فيما بعد مع تراكم الذنوب عليه ، وكثرة الجرائم التى ارتكبها ، ولكن الفضل — كما يقول ابن خلكان [2] — خاف من المأمون إن انتهت الخلافة إليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ، ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

والفضل هنا أنانى بعيد العمق فى الأنانية ؛ لقد أراد أن يضمن لنفسه

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٤١٢

النجاة ، ولو أدى ذلك إلى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتيتيم الأطفال ، فقسم العالم الإسلامى معسكرين وانطلقت السيوف والحراب بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند فى الميدان ، وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يدُ الدمار حضارةَ بغداد ، وتعرض سكانها إلى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدىَ الفضل نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهى تعجيله بإثارة هذه الفتنة ، فقد بدأ يشعل أوارها عقب وصوله بغداد عائداً من طوس ولا يكاد الإنسان يجد سبباً مقبولا لذلك التبكير إلا شغف الفضل بالشغب والمؤامرات وسفك الدماء ؛ أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل خاف أن تفضى الخلافة للمأمون وهو حى فينكل به ، فلا أميل إلى التسليم به لأن الأمين كان فى مقتبل العمر وشرخ الشباب ، وكانت صحته وفتوته مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسداً بدون سلاح فصرعه[1] ، صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الظواهر لم تكن توحى بضرورة هذا التعجيل ، وقد كان المنصور يعزم على نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى إلى المهدى ، ولكنه لم يُقْدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاماً من ولايته حينما استقرت له الأمور ؛ فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت وسعى فى إصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب إلى رغبة المأمون فى التقرب والتحبب ، لكان من المحتمل أن تتغير الأحوال ، وأن

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦

تصفو العلاقات ، ولكنه الفضل الذى ورث أباه فى الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق المعوج ، وزج العالم الإسلامى فى هذا الأتون ؛ فها هو ذا التاريخ لا ينسى ، وإنما يجدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

ولم يكن الأمين فى أول الأمر يفكر فى عزل المأمون ولا يميل إليه ولكن الفضل هو الذى فتح هذا الباب ، ولم يزل يصغر عنده أمر المأمون ، ويزين له خلعه . وقال له : ما تنتظر عبدالله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قبلهما ، وإنما أدخلا فيها بعدك ؛ وأيَّد علىُّ بن عيسى بن ماهان الفضل فيما ذهب إليه ، فوافقهما الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يوما للفضل : يا فضل أحياة مع المأمون ؛ لا بد من خلعه ؛ فاغتبط الفضل بهذا وأخذ يغريه ويقول له : فتى ذلك ؛ إذا انتظرت له حتى يغلب على خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفةُ محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبهُ شيخَ الدعوة ونائبَ هذه الدولة ؛ وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السادة والقادة ، ولكن كفتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه . (٢)

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يجل العهد الذى قطعه على نفسه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ؛ فهو يواتر كتبه له ، ويحشدها بعبارات الإجلال

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٥

(٢) المرجع السابق

والتعظيم ، ثم يواصل إرسال الهدايا العظيمة إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . (١)

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئا ، بل اندفع الفضل ابن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى واتخذ لخلع المأمون خطوات متتالية مثابرةً أغرى بها الأمين فاستجاب الأمين لاغرائه :

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد إلى موسى بن الأمين على أن يكون تالياً للمأمون والقاسم المؤتمن ، وكتب إلى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما . (٢)

ثم استدعى المؤتمن من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيداً لعزله هو أيضاً . (٣)

ثم كتب الأمين إلى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل إليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلا لوضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعاً لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل إليه الطرف والهدايا ، ولكنه أحس بخطئه فكتم الأمر عن المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه . (٤)

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٤ والخضرى ٢ : ٢١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ثم أشار إسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرّفه حاجته إليه ، ويبلغه شوقه إلى قربه ، وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته ، ويسأله القدوم عليه ، فقبل الأمين هذا الرأى ، وأمر إسماعيلَ أن يكتب ففعل ، ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة ، فلم يلتفت إلى الأمين ولم يجبه . (١)

ثم كتب إلى المأمون يسأله التجافى له عن بعض كور خراسان ، وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ، وأن يرسل إليه كل عام ما يتبقى عنده من المال بعد نفقاته ، فاستشار المأمون أصحابه ، فأشار بعضهم بالموافقة معللين ذلك بأنهم يطلبون السلامة ويتحاشون الخلاف لسوء ما يؤدّى من عواقب ، ولكن الفضل بن سهل وأخاه الحسن عارضا هذا الرأى ، وقال الفضل : إنا إن أجبنا هذه المرة فسيتجاوز هذا الطلبَ إلى غيره ، وسنكون بذلك قد تعجلنا الوهنَ بما أعطيناه ، وقال الحسن : لا تهنوا لقِلة فيكم ؛ فليس النصر بالقلة والكثرة ، وجَرْح الموت أيسر من جرح الضيم ؛ وقال المأمون : إن إيثار الدعة يؤدى إلى فساد العاقبة فى الدنيا والآخرة ؛ وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢) .

ثم وجه الأمين إلى المأمون أربعة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ، وعيسى بن جعفر بن المنصور ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد ابن عيسى بن نهيك ، ومعهم كتاب يطلب الأمين فيه إلى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فى ولاية العهد ، فلما قرأ المأمون الكتاب

---

(١) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٦

(١) الجهشيارى ٢٨٩ـ٢٩٠ وابن الاثير ٦ : ٧٦

رفض أن يستجيب لهذه الرغبة الجامحة ، وأخبر بذلك الرسل ، فقال العباس ابن موسى : لقد جرت العادة بذلك أيها الأمير ، وهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع من قبل ، فصاح الفضل بن سهل : اسكت ، إن جدك كان أسيرا فى أيديهم ، وهذا بين أخواله وشيعته ، ثم قاموا ، فخلا ذو الرياستين بالعباس بن موسى ، ووعده إمرة الموسم ومواضع من مصر ، فأجاب سراً إلى بيعة المأمون ، ووعد أن يكتب المأمون بأخبار بغداد عند عودته ، ثم عاد ومعه أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقديم موسى عليه ؛ وأصبح العباس عينا للمأمون فى بلاط الأمين (١) .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سىء إلى أسوأ ، وأنه لا بد أن يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل فى هذا النزاع ، فأقفل الحدود بينه وبين العراق ، وأمر ألا يسمح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا بإذن خاص وبعد تفتيش دقيق ، وبهذا صارت أمور المأمون مستورة عن الأمين ، ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون بترتيب العباس بن موسى ، ثم شرع المأمون بعد ذلك يعد نفسه ، ويهيىء جنده ، وكتب إلى عماله بذلك ، وتحبب هو إلى الناس ، واتصل بالعلماء والفقهاء ، وبينما كان المأمون يفعل ذلك ، كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب . وسارت الركبان فى الآفاق بغدر محمد الأمين ، وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه ، ومكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه (٢) .

وانتهز الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون ، فى وجه الأمين وعدم

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٦

(٢) الجهشارى ص ٢٩٢

استجابته لرغبة ما من رغباته ، فألح على الأمين فى خلع المأمون ، وتولية ابنه موسى بعده ، فاستجاب الأمين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك فى صفر سنة ١٩٥ هـ ، وكتب الفضل بن الربيع عن الأمين بذلك ، وبالنهى عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجبة وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى الكعبة بالبيعة ، ففعل ذلك وسرقهما ، وصار بهما إليه ، فدفعهما الفضل إلى محمد فمزقهما (١) .

وبلغت هذه الأخبار المأمونَ والفضل بن سهل ، فوجهاهما إلى الجند وتزويدهم أحسن زاد ومدهم بأقوى عتاد ، وكوّن ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال هما طاهر بن الحسين وهَرْثَمَة ابن أعين ، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثانى يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده ، وليضمن لقواته النصر .

وحدثت أول معركة بين جيوش الأمين بقيادة على بن عيسى بن ماهان الذى استهان بجيوش طاهر (٢) وبين طاهر بن الحسين . ودارت الدائرة على جيش الأمين ، وقتل على بن الحسين ، فكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى إصبعى وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين (٣) . فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصحّ

---

(١) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٧

(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٣ .

عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة، وأمر أن يخطب له ويخاطب بأمير المؤمنين [1].

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة، وأخذت تتقدم من فوز إلى فوز، ومن نصر إلى نصر. ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد وفاة علي بن عيسى وعم الشؤم بغداد، وكون الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة لمواجهة طاهر، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه، ثم دعا الفضلُ بن الربيع أسدَ بن يزيد بن مزيد ليقود الجند فانتدب أسد فيما أمده من الأموال والعتاد والرجال والسلاح، فصار به إلى محمد، وعرفه ذلك، فغضب وأمر بحبسه [2].

وحدث أن ولىَّ الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن يمده بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين في حربه ضد أخيه، وذهب عبدالملك إلى الرَّقَّة، فكاتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا، ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين؛ فإن حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء الجنود، فاشتبكوا في قتال عنيف كان من نتائجه تشتت هذا الجيش وعدم إنتفاع الأمين به [3].

وثار الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان على الأمين في بغداد وخلعه في رجب سنة ١٩٦ هـ وأخذ البيعة للمأمون، وأيده في ذلك العباس بن موسى بن عيسى، ولكن هـــذا لم يتم، إذ عاد بعض الجند فانشقوا على الحسين،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٨٥ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٩ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٦ : ٨٥ ــ ٨٦

وأطلقوا سراح الأمين ، وأجلسوه على كرسى الخلافة مرة أخرى [1] .

وكان داود بن عيسى بن موسى عاملا للأمين على مكة والمدينة ، فلما رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة الكتابين من الكعبة ، جمع الناس بمكة وقال لهم : قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام لابنيه لنكونن مع المظلوم منهما على ظالمه ، ومع المغدور به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فنقض بيعة أخويه ، وبايع لابنه الطفل الرضيع ، وأخذ الكتابين من الكعبة فمزقها ظلما ، ولهذا فقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون؛ فأجابه الناس إلى ذلك وكتب لابنه سليمان بالمدينة أن يعلن هذا ففعل ، وكان ذلك فى رجب ١٩٦ هـ [2] .

ورأى الفضل بن الربيع تدبيره يفشل ، ورأى دولة الأمين تضعف وتضمحل ، فظهر بمظهر غير كريم ؛ ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم معه مرارة العيش فى هذه الأيام الكدرة ، ويشرب معه كأس المتاعب حتى الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشجاعة مسئولية ما قدّمته يداه ، وإنما استتر فى رجب سنة ١٩٦ هـ تاركا الأمين وحده فى هذه الليالى السود [3] .

ولم يستطع الأمين اللاهى أن يتدارك أمره فأخذ شأنه يضعف ، وفقد المال والرجال ، وحاصرت جيوش المأمون بغداد ، ومرت بعاصمة المسلمين أحلكُ الليالى ، وكثر فيها الخراب والهدم والحرائق ، حتى درست منازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم إلى جيوش المأمون كثيرون من

---

(١) المرجع السابق ٦ : ٨٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨٨ ـ ٨٩

(٣) الجهشيارى ٣٠١ ـ ٣٠٢

أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفساق يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ، وعمت الآفات ، وقد وصف بعض شعراء بغداد هذه الفترة القاسية وصفاً يغنى عن المزيد من الشرح فقال :

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
وقوم أحرقوا بالنار قسرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى : واصباحا ... وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
ومغترب بعيد الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق [1]

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمين ، وانضم عدد من سادتهم وقادتهم إلى جيوش المأمون المحاصرة ، وقدموا لها العون والمساعدة . أما الأمين فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبقى معه من الجوارى بمدينة المنصور [2] ، وتقدّم طاهر فحصره وأخذ عليه الأبواب وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمينُ هرثمةَ ابن أعين ، وطلب منه الأمان على أن يستسلم إليه ويسلم البردة والقضيب والخاتم ، فقبل هرثمة ، ولكن طاهراً كان للأمين بالمرصاد ، وأراد أن

(١) ابن الأثير ٦ : ٩١ ـ ٩٢

(٢) هى بغداد التى بناها المنصور وكانت فى عهد الامين تمثل جزءاً صغيراً من العاصمة التى اتسعت اتساعا كبيرا ،

يحظى بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثمة ، ونزل الأمين إلى دجلة حيث كان هرثمة فى انتظاره فى حراقته ، فأحسن هرثمة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثمة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها ، وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه إلى طاهر ، فأرسل بها إلى المأمون . (١)

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التى تسبب الفضل بن الربيع فى إشعالها ، أما الفضل فقد ظل فى مخبئه ، بعيداً عن هذه الكوارث التى أنزلها بالآخرين ، وبمنأى عن الملمات التى حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شباب المسلمين .

ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبار والثبوت أمامها ، وتدبير أمورها ، وإنما كان رجل دعة ونعيم .

والعجيب أنه ظل مختفياً حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشبا بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لتولية المأمون عليا الرضا عهده ، ولأنه بلغهم أن الفضل بن سهل مسيطر على المأمون وأن المأمون سجين عنده ؛ ولما انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، لم يتحرج الفضل بن الربيع من الظهور ، والاتصال بإبراهيم بن المهدى ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار .

فرسمه إبراهيم بحجابته ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون فى طريقه إليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل . . . فاختل أمر إبراهيم ابن المهدى، وفى هذه الحال عاد الفضل بن الربيع إلى الاستتار مخليا إبراهيم ابن المهدى ليواجه الأحداث وحده كما خلى من قبل محمدا الأمين [1] .

وظل الفضل مختفيا إلى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل إلى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحطة فى دار المأمون [2] وظل كذلك إلى أن مات سنة ٢٠٨ هـ مخلفاً هذه الذكريات المرة التى تتجدد من حين إلى حين ، والتى تدل على أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة .

---

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٢ .

(٢) الأغانى ٣ : ١٥٢ .

الفصل الرابع

دراسة تقييمية